سلسلة
استراتيجيات الحركة الخيرية - (٧)

الظاهرة القيادية

محمد أحمد الراشد



إحياء فقه الدعوة

سلسلة

استراتيجيات الحركة الحيوية

الرسالة السابعة

الظاهرة القيادية

أخبار الأحرار في الإنكار الذي يزدحم فيصلح الديار

وظاهرة حشد المنظومات الاجتماعية الصغرى لبناء المكانة القيادية الكبرى

والتنبيه إلى توفر شروط بداية صحيحة لنهضة حضارية

تتوسل بمذهب التفويض للنفس الواثقة

مع شرح الآثار الإيجابية للقيادة الفكرية حين يوكل لها القرار

ثم المدى الإصلاحي العالمي المفتوح أمام أيديولجية إسلامية شاملة

تعترف بالفن كجزء من معارفنا الإيمانية

وتتخذ من صناعة الولاء الواعي طريقاً لإسناد القادة

محمد أحمد الراشد

□□ يتباين استقبال الفقهاء لإشارات القرآن الكريم.

فآية مثل قوله تعالى: "ومن كل شيء خلقنا زوجين"الذاريات/٤٩ تنصرف عندها البديهة إلى أنها تتحدث عن الأزواج من كل حيوان.

لكن مجتهداً كان يقترب من جمع شواهد علم حركة الحياة، مثل التابعي "مجاهد ابن جبر المكي" تلميذ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: امتلأ جرأة أن يذهب مذهب رؤية "التحريك" الذي يكمن في حقيقة وجود المتضادات.

قال ابن عطية الأندلسي: (أي مصطحبين متلازمين. وقال مجاهد: معناه أن **هذه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء**، كالليل والنهار، والشقوة السعادة، والهدى والضلال، والسماء والأرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان، ونحو هذا، ورجّحه الطبري بأنه أدل على القدرة التي توجد الضدين، بخلاف ما يفعل بطبعه فعلاً واحداً، كالتسخين والتبريد.)[١].

● **وهذه الظاهرة مطردة في محيط الفقهاء، وهم يتناولون الكثير من مفاهيم علم حركة الحياة دون أن يتقيدوا بالمصطلح والعنوان**، كمثل ما قاله ابن عطية في تفسير قوله تعالى: "وكم أهلكنا من قرنٍ هم أشد منهم بطشاً"سورة ق/٣٦.

قال ابن عطية: (**وشدة البطش هي: بكثرة القوة، والأموال، والملك، والصحة، والأذهان، إلى غير ذلك.**)[٢].

فهذا شاهد لصحة جعل المحركات الحيوية عديدة، مثل أن تكون عشرة فيما رصدنا، فالبطش الشديد كناية عن ذروة تحريك للحياة وبزخم عال، ولذلك كان واضحاً عند ابن عطية احتياجه إلى غير القوة أيضاً، فجعل من مصادره: الأموال، والسلطة، والصحة، والذكاء الذي ينتظم الفكر والإبداع، ومعنى ذلك أن كون التحريك إنما هو معادلة عديدة العوامل أمر واضح لمن عنده فهم لطرائق التأثير الحيوي، وأنه جعل الآية شاهداً من شواهد "عُشارية التحريك" التي قررناها، ومال إلى منهجية في تحليل الحركة الحيوية وكيفية اجتماع المؤثرات لتوليد حركة قوية.

وذلك يعني أن المؤمن الحي القلب، الإيجابي الذي لا يريد أن يستسلم لتيار يُسيِّره، ولا يرضى أن يكون ريشة في مهب ريح السياسة وأحداث الحياة: سوف يقطع التفرّج، ويباد إلى ترك أثر، ويقذف نفسه في زحمة هذه الأسباب الكثيرة التي تحرك الحياة، ويخوض الخِضَمَ إلى درجةٍ ينتدب فيها شاعرٌ يراقب المشهد نفسَه لوصف ما هنالك فيقول:

جــا بـــزَحْمٍ، مــع زحــمٍ، فــازدحمْ

تــزاحمُ المـــوج إذا المـــوجُ الـــتطمْ

وكأن هذه هو السلوك اللائق الوحيد، لأن القضية تتجاوز أن تكون منظر آراء متناقضة، وإنما هناك آلام، وربما جراح.

❑ المعنى الدعوي حين يفرض نفسه وننشأ مجموعة نُنفذ

❑ **والمؤمن يحب السكينة وهدوء القلب**، ويعاف الازدحام، وذلك طبعه، وتأنس نفسُه بالعزلة عن الصخب، ويسعى لتضييع شخصه في ركن مسجد، **ولكن واجب الإصلاح هو الذي يحركه، فيبتكر له الجريري الزاهد حلاً ونوعاً من العزلة الصحيحة**، فيصفها له ويقول:

(هي الدخول في الزحام، وتمنع سِرّك.)[٣].

فهذا مفهوم إيجابي لها: أن تحضر الميدان، وتكون من جملة مظاهر الحياة، في المهن والسياسة والأسواق، مشاركاً ومتعاطياً، لكن تكون لك مجموعة معانٍ إيمانية واستنتاجات فكرية ومشاعر نفسية عليا، والتذاذات بالعبادة تتحول إلى استئناس قلبي وفرح، فينضم بعض ذلك على بعض لتتشكل "كتلة" من الفقه والوعي والزكاء الروحي متداخلة مندمجة، وهذه الكتلة الثمينة هي التي تُساور بها وإن كنتَ حاضراً بين الناس غير غائب، **حتى إذا رأيت نجيباً ولعاً يقترب: أمددته ببعض هذا السر**، إعانة له على المواصلة، ثم تتلوه بمدد وجزء آخر من السر، حتى تراه مستوياً.

ومن مثل هذا النمط قيل للمصلح أنه كائن بائن، فهو كائن مع الناس مخالط، بائن عنهم باهتمامه وقلبه.

فإذا تواصل الإمداد لكل نجيب مولع بالإصلاح وكشفنا لهم الأسرار: يكون حينئذ تكتكيل المنظومات الإصلاحية من أجل صناعة "الازدحام" الذي يتعاظم فيه الزخم، فيولَد واقع جديد.

● إن هدوء المؤمن حق، وهو السمت المفترَض أن يعلوه دوماً، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم علمه وأومأ إليه أن يتحرك بحركة "الحُر" الذي يرى ضيماً، ففي صفته صلى الله عليه وسلم أنه: "إذا تُعوطي الحقُّ: لم يعرفه أحدٌ".

(أي أنه كان من أحسن الناس خُلُقاً مع أصحابه، ما لم يرَ حقاً يُتَعرَّض له بإهمال، أو إبطال، أو فسادٍ، فإذا رأى ذلك شمَّرَ وتغيَّر، حتى أنكرَهُ مَن عرفه، كلُّ ذلك لنُصرة الحق.)[٤].

هذا التشمير هو عين التحريك وبداية التغيير، ومن العدوان أن يذهب متأول إلى حصر الأمر بحقوق المال، ولكنها النُصرة في عمومها، لسياسي مظلوم، ومكبوت سجين، ومعارض بفقه، وشريف يُفتات عليه، وحُرة ذات حياء ينال رقيعٌ من سمعتها وعفافها، فهي انتفاضات عديدة، تتولد منها حركات مستمرة.

☐ ظاهرة حصر الحركات في وعاء كبير

☐ لكن كون الحركات مستمرة لا يعني أنها تنبض في محيط حُرّ مطلق كلها، وأنها تكون سائبة مرسَلة متفلتة لا يحدها حدّ، بل إن قسماً كبيراً منها يعمل وينشط ضمن "وعاء كبير" يحتويه ويضبطه ويحصره بشكل من الأشكال، وأوضحُ الأوعية الكبيرة: نظام الحكم والسلطة في مرحلة في بلد من البلدان، فالحاكم الماهر يسترضي أو يقهر عدة طبقات من الحاكمين الأقل شأناً منه، ورؤساء الناس، ويجعل حركاتهم تدور في المدار الذي يريده وتكون به وظائف الدولة قائمة، ومع توالي الأيام تحصل تلقائية في هذا الأداء الذي جعل له الحاكم

مسالك محددة ومجاري وقوانين ربما، وبمثل ذلك تتناسب معظم الحركات الحيوية في البلد وتعرف حدودها ضمن الوعاء العام ولا تشذ، وتستمر إلى حين ضعف رقابة الحاكم، فيبدأ التملص ويزداد إلى أن تُولد دولة جديدة.

ولتصوّر هذا الوعاء ومعناه يجدر بنا أن نقف عند وصية سياسية قديمة تبين طريق الحكم الأمثل، فيقول الفقيه أن من حكمة الحاكم: (أمر اتفق عليه حكماء العرب والروم والفرس والهند، وهو **أن يصطنع وجوه كل قبيلة**، والمقدمين من كل عشيرة، فليحسن إلى حَمَلة العلم وحفّاظ الشريعة، ويزين مجالسهم، ويقرب الصالحين والمتزهدين، وكل متمسك بعروة الدين، **وكذلك فليفعل بالأشراف من كل قبيلة، والرؤساء المتبوعين من كل نمط، فهؤلاء أزمّة الخَلْق، وبهم يملك مَن سواهم، فمن كمال السياسة والرياسة أن يُبقي على كل ذي رياسة رياسته**، وعلى كل ذي عزْ عزه، وعلى كل ذي منزلة منزلته، فحينئذ يكون الرؤساء أعواناً، ومن دانت له الفضلاء من كل قبيلة: فأخلق به أن يدوم سلطانه، والعامة والأتباع دون مقدميهم وسادتهم: أجسام بلا رؤوس، وأشباح بلا أرواح.)[٥].

ومعنى هذا الكلام إذا عكسناه: أن هناك في كل مجتمع منظومات عديدة من الحركات، أي عدة ألوف من المنظومات، والواحدة منها بناها وحركها وأدارها رئيس من الرؤساء، مثل رئيس قبيلة، ورئيس مهنة، وزاهد له أتباع، وشريف مطاع، فيأتي الحاكم الحاذق فيسترضيهم، وبذلك تجتمع هذه المنظومات الحركية إلى بعضها ويتكون زخم شديد من تضامّها، **ومع الأيام تحدد تعليمات الحاكم وقوانينه النطاق الذي تدور فيه هذه الحركات المجموعة**، ومن خلال التكرار يتكون الوعاء العام الأكبر الذي يوحدها أو يسيطر عليها من خلال حصرها، **والحياة المعاصرة تمشي على هذه السُنّة والطريقة أيضاً، لكن أضيف للرؤساء إعلامي ونقابي ورئيس جمعية وصناعي ومصرفي، والظاهرة واحدة هي هي.**

□ الظروف مواتية لمؤمن بنوي ارتقاء مدارج الحضارة

□ **وأثناء ذلك: يلزم نوعٌ من روح التحدي أن يسيطر على الحاكم أو الذي يحدث نفسه بحكم، بأن يكون منه إصرار، وعناد، وطموح عريض يجعله يدأب في ربط هذه المنظومات العديدة الكثيرة في سياق واحد وتوجّه جامع يخدم هدفه، ويبلغ مداه الأقصى حين تمنحه هذه الرئاسات الفرعية الاجتماعية والسياسية الصغيرة ولاءها، وعلى قدر مهارته في استثمار هذه المنحة وإدامتها: يكون ضمان مستقبله**، وهذه الإدامة تستدعي فنوناً صعبة، ولكن أصل استنادها إنما يكون على "الطموح الذاتي" الذي تدفعه "رؤية واضحة".

لكن الفرد الطامح مهما كان مؤهلاً لقيادة الآخرين بكفاية: فإن اندفاعه نحو المجهول ربما يجعله يَوْجَل، ويعيد الحساب، وإعادة الحساب قد تستهلك وقتاً، والفُرص قد لا تنتظر، **ومن هنا تنشأ الحاجة إلى المواتاة في الزمن المضبوط، ويبرز عامل الوقت كعنصر مهم**، ودفع ما قد يكون هناك من احتمال سلبي إنما يكون بالتشجيع والحثّ.

● **والتشجيع والحث: مُحرِّكان من محركات الحياة، لهما أثر مؤكد**، فحين يَجْبَه المرء أموراً صعبة: توسوس له النفس وتفلسف له الحذر، فيعتريه إبطاء، لكن إهابة الآخرين به تدفع عنه الوسواس، فيقتحم، على طريقة عنترة بن شداد حين يقول:

ولقد شَفَى نفسي وأذهَبَ سُقْمَها

قيلُ الفوارِسِ: وَيْكَ عَنتَرُ أقْدِمِ

لكن انتبه إلى أن هذا التشجيع و"القيل" إنما يصدر عن "الفوارس" الشجعان الخبراء، **فليس كل حَثٍّ شهادةً بصواب الإقدام**، وإنما هي مقالة المجربين، وأما الطارئ والعامي والهواة فلا، لأن الذي يستمتع بصراع الديكة قد يحدثه شيطانه أن يناطح بين الساسة.

وهذا الميزان ينبغي استحضاره عند الأداء الدعوي، السياسي منه وغيره، فإن قيادةً لو صاغت خُطة وقاربت اتخاذ موقف وصياغة قرار مهم: فإن القيادات الأخرى ينبغي أن لا تكلها إلى نفسها وتقديرها ومهارتها وحدسها ووعيها فقط، بل يلزم أن تشهد لها هذه القيادات الأخرى وأرهاط المفكرين وأهل التنظير والتخطيط بنعم أو لا، فينصحونها بإقدامٍ أو ريثٍ، لأن الشهادة بالصواب تزيح أسقام الشك والتردد والخوف من الخطأ، ونصيحة الأخر تكشف سلباً ما لم يتم الانتباه له، وبهذا نستطيع أن نميز "الحوار القيادي المفتوح المسترسل الدائم" على أنه محرّك قوي من محركات الحياة، أبدعه عنترة، وما زالت قوةُ منطقه نافذة، وهو الشيء الذي تحتاجه الدعوة العالمية اليوم إذا حَدَّثَتْها نفسها بإقدام.

• والمفاد العكسي صواب أيضاً، فليست كل حركة هي إيجاب، بل قد تكون سلبية، مثل حركة النفس الخائفة التي عابها عنترة حين افتخر بنفسه الثابتة الراسخة ثانية، وذلك قوله:

فصبرتُ نفساً عند ذلك حُرَّةً
ترسو إذا نَفسُ الجبان تَطلَّعُ

• ومن ثَمّ كانت رمزيات الإصرار حية عبر الأجيال، وبقيت شعاراً لكل معاند ثائر، وشاعر من شعراء الحث.

وذلك سر قول حسن فتح الباب:

ويغمرني الموج.. لكنني..
أعانده بالشراع الكسير"

فمحاولات الإنسان الحر ماضية، يحركها التحدي، حتى ولو لم يملك الوسيلة الكافية، أو كان الصاري محُطَّماً، فإن الدأب منه قريب، والأمل.

• وهذا إذا كان صادقاً في المجال الفردي، ومجال الجماعات: فإنه في حال الأمة أصدق، فقد ترتكب كل الأمة إبداعاً من خلال وقفات التحدي البنّاء، وعبر تكرر هذه المواقف تنشأ للأمة حضارة، وتنتقل إلى وضعٍ فعّال ونمط إنتاجي،

فعند "توينبي": (أن الحضارة لا تنشأ إلا حيث تكون "البيئة" صالحة لأن تتحدى شعباً ما، وإلا عندما يكون هذا الشعب مستعداً أتم الاستعداد للاستجابة لهذا التحدي.)[٦].

وبإنزال هذه الملاحظة من شيخ المؤرخين نستطيع أن ندرك أن الضغوط المتزايدة على الأمة الإسلامية من "البيئة العالمية" صارت تشكل تحدياً سيوقظ كوامن الطاقات، وأن السعي الدعوي، في إيضاح الفكر والعلوم وإشاعة الوعي السياسي وتنظيم طاقات الناس وإبراز قيادات مخلصة لهم: كل ذلك يعتبر استجابة للتحدي ومحاولة مرشحة لنجاح جولة جديدة من الحضارة الإسلامية إذا استطاعت هذه المحاولة ردم الفجوة العلمية والإدارية والمنهجية الحاصلة حالياً بين العالم الإسلامي والغرب المتقدم، والنجاح في ذلك متصور ممكن إن شاء الله، قياساً على تقدم في ماليزيا حصل، واستثماراً لقابليات المهاجرين إلى الغرب من المسلمين الذين يمكن أن يقوموا بنقل التكنولوجيا المتقدمة، وبوادر نجاح صناعي في تركيا ومواطن متفرقة.

إن وقفة بطولية كمثل وقفة الجهاد العراقي كان يمكن أن تكون بداية لتحول سياسي عالمي واسع يتيح تقدماً لجميع الأمة الإسلامية في المجال الحضاري لو كانت تفقه أهمية نقض خطط العولمة، أو لو أنها أجادت إسناد ذاك الجهاد وإعانة أهل السنّة عن طريق القيادات الفعلية الميدانية وليس الاكتفاء بشيء من إسناد بعض الزعامات الفردية والعشائرية التي ترضاها الحكومات. والأمر مثيل في الجهاد الفلسطيني، هو مرشح لتغيير المعادلات العالمية لو لم يكن قرار العرب السلمي، وأيضاً: كان من الممكن دفع جزء الأمة الإسلامية الذي في أفريقيا نحو بداية أداء حضاري لو أن العرب أسندوا حكومة السودان في وجه الضغوط الدولية.

والمقصد: أن نشير إلى أن فرصة استثمار التحديات موجودة، وإذا حصل تضييع لها أحياناً فلربما يكون هناك نجاح في أحيان أخرى في اغتنامها، ولا يصح اليأس، ويمكن أن نتأول ونحلل الضياع السابق بأن أسباب التمكين والتحشيد ما

كانت كافية، فإذا حصل استدراك جاد وتفير مكافئ ورصد أموال وردف إعلامي وبيان فكري: فإن النتيجة الإيجابية تكون أقرب إلى التحقق، وأهم ما يلزم لـذلك: نشوء الطبقة الواعية التي تقود، وهذا يوشك أن يحصل من خلال الصفوف الدعوية المنتشرة في العالم أجمع، وهي المؤهلة لهذه النقلة اليوم، ويلزم أبناء الأمة بعض حسن الظن، والمقياس الإيماني، ونبذ الأهواء والحسد والشخصانية: ليكون توظيف الطاقات ممكناً، فيصير الإصلاح، وتنطلق مشية حضارية واثقة، ولئن **انغلقت قلوب الكبار فإن نفوس شباب الصحوة أصفى وأنقى وأجدر بأن يتمثل قَدَر الإسناد فيهم**، وكأن التحولات التاريخية تنتظر دائماً قَدَراً ربانياً عظيماً يكون هو مفتاح ما أغلقه عجز التصورات.

□ هدير الآلات خلف المحاريب يُبشر بمقدم القَدَر الخيري

□ والتكييف المتوقع الذي يمكن لهذا القَدَر أن يُتصور به ويتمثل: هو في الأغلب وعلى الأرجح: حالة تضامّ القوى الفردية الكثيرة العدد بحيث يتاح تكوين زخم من مجموعها، ويكون ذلك ببروز زعامات متعاونة متفاهمة تجمع إليها حشوداً من شباب الصحوة فيتكون تيار ضخم عارم هو محصلة القوى العاملة.

● فهذا التجميع للنبضات والحركات الصغيرة وجعلها كبيرة مؤثرة بالضم وزعمنا أنه يتولد منها زخم: إنما يستند إلى ظاهرة فيزياوية واضحة، هي ظاهرة "محصلة القوى" التي لا يستريب أحد في صحتها، حتى الأمي الذي لا يعرف من الفيزياء حرفاً يستعملها ويستثمرها في يومياته وتقوده الفطرة، فالبحّار يشد إلى زورقه محركين وتقوده الفطرة، إذا أراد السرعة، مثلاً، وقبول هذه المسلّمات الأولى هو الذي يقود إلى فهم مثيل: أنّ توالي الجمع وتراكم المؤثرات الصغيرة على مدى واسع وطويل يؤدي إلى قوة عظيمة تجد سبيلاً إلى التغيير، وقد تضاف إلى هذه الأسباب التراكمية قابلية كيمياوية في بعض المواد تتيح شدة الانفجار، كما في البارود، وهذا معناه أن نوعية الإنسان الذي يعاني تضيف بالثقافة والعلم

والهندسة وأنواع الكفايات قوة إلى القوة الأصيلة، ثم قد تضاف قوة فيزياوية أخرى إلى ذلك، تأتي في صورة انعتاق الطاقة الكامنة في أصل ذرات العناصر، وهي طاقة عظيمة تجعل انضمام البروتون إلى أمثاله ممكناً، فإذا حصل تفكيك لها تحررت الطاقة المستعملة للربط، وهذا يحصل من خلال المفاصلة الفكرية والعقيدية بين القوى والقيادات التي تقود قطاعات المجتمع، فإذا انفصلت يتولد نزاع، فيستأثر بالسلطة جانب، ويخضع آخر، وإنما كانت هذه الشروح لبيان أن **سياقات التغيير متجانسة مع الظواهر الفيزياوية الطبيعية، وما هي بنشاز، وأن القوة قد تتعاظم بتكثير مواردها الجزئية، أو بفصم العلاقات وتحرير الطاقة الرابطة، ولكن هذا المسلك الثاني خطر جداً، إذ قد يتحول إلى انفلات مدمر،** وليست كل الطاقة النووية يمكن السيطرة عليها وإسالتها إلى استعمال سلمي.

● **وإشارات الشرع المتوارية عن غير العلماء: فيها إيماء خفي لمن ألقى السمع وهو شهيد على التاريخ: أن قدَر الانحسار والانكفاء الأمريكي عن بلادنا ذات المكانة المركزية في الأمة الإسلامية: إنما هو تمهيد لمرحلة إسلامية جديدة آمنة بإذن الله.**

وتلك إعادة لنمط ورود قَدَر الخير على قريش بعد حادثة الفيل، وقوله تعالى: "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف"، (أي أهلك الله أصحاب الفيل لتؤلَف قريشٌ رحلتيها آمنتين) (فتتصلا ولا تنقطعا.)[٧].

فهلاك أبرهة تحريك للحياة أراده الله لتحيا قريش حياة تجارة جَعلتها تقود العرب تمهيداً للنبوة، ونقض العولمة المعاصرة يؤذن له اليوم أن يكون تحريكاً للحياة مستأنَفاً يريده الله لتحيا الدعوة حياة فكر وعز ووعي فتقود الأمة.

ومَن يدري: لعلّ الإيماء قوي يفهمه المخططون فقط: أن رحلة التنمية، ورحلة الصناعة وملحقاتها التجارية: هما رحلتان تمثلان بوابة الدخول إلى المكانة القيادية، ومن ثم: الممارسة السياسية الناجحة، فيكون الدرس القَدَري القديم الحكيم الخيري مستأنَفاً ومُعاداً بدرسٍ قَدَري يولد الآن لا يكرر الهدف فقط بل يتخذ نفس الوسائل، والتأمل الطويل إذا أوصل أهل الشأن الإسلامي إلى

مثل هذا الاستنتاج: فإنه يكون ميزاناً يؤكد وجوب الفتح السياسي عبر الفتح الاقتصادي المالي، فتجب عندئذ بصورة أعمق خطط الخطو الدعوي نحو الأسواق، إذ لعل القَدَر ينتظر ثَمَّ عند ركن المصرف الإسلامي بجانب المسجد.

والناس تقرأ سورة الفيل ثم سورة قريش وتفهم منهما الظاهر، ولكن القراءة باستحضار نظرية الحركة الحيوية تستنبط خُطة النقلة وجميع محركات التطوير.

◻ مذهب الثقة بقدرات النفس الطموحة

◻ ويرى البعض في مثل هذا الكلام حنثاً، والأمر كذلك، لأن وسواس الإسراف في الحسابات على قاعدة وجوب دراسات الجدوى إنما يليق للشركات، **ولكن ميادين الفكر والتربية والتأثير السياسي ينبغي أن تحكمها قواعد دراسات النفس، ومفاد تجربة المتأملين: الوصية بإرخاء العنان لتطلعاتها واستجاباتها لنداء الطموح وتعهداتها بحمل الأمانة وكفالتها التطوعية لكل أمر ثقيل**، عندما تهتز طرباً عند ركن التشويق الإيماني ومصعد العز، وإنها لجديرة بذلك إذا كان هناك وضوح، وإنما التلعثم هو فرع الغموض.

لذلك قال الشاعر[٨]:

أَقــــدُرْ لنفـــسِك أمــــرَها

إن كـــان مـــن أمـــرٍ كِيالــه

والكيال: المجاراة.

ومعنى ذلك أن تعرف مدى قدرتك العامة وطاقتك عندما تكون في منافسة، بل قدرتك النفسية بخاصة واحتمالك للمنافسة، وهذا هو موطن الإبداع في هذا القول: أن القدرة الجسمية والعقلية قد تكون وافرة، ولكن المستوى النفسي يخون.

بينما تقرير الشاعر الثقة علي بن الجَهْم[٩] يفيد أنها:

هي النفسُ ما حمَّلتها: تتحمَّلُ

يشير إلى ظاهرة من ظواهر النفس: أنها تتقبل حمل الأثقال، وتعتز، وقد تهتز فرحاً.

● وأوضحُ من قول علي بن الجَهْم في ذلك قول علي بن محمد البسّامي[10] يشرح صبره على الشدائد:

فـإن تكـن الأيـام فينـا تبـدّلت
بـنُعْمى وبُؤسـى، والحـوادث تفعـل
فمـا ليَّنـتْ مـنّا قنـاةً صليبةً
ولا ذلّلتنـا للـذي لـيس يـجْمُل
ولكـن رَحَلْنـا نوفـساً كريمـةً
تـُحمَّلُ مـا لا تـستطيعُ، فتـَحمِلُ

والشاهد في البيت الأخير: أن للنفس قابلية حمل الثقيل.

● **ومثل ذلك: قول إبراهيم الخواص: (ما هالني شيءٌ إلا ركبتُه)**[11].

فإنه يكشف عن ظاهرة في العلاج النفسي الإيماني الذاتي مهمة جداً، فالمسلم في أثناء حركاته اليومية وتحدياته وخوضه لمعركة إثبات ذاته: تـجبَهه أحياناً وتـصدمه مشاعر تدعوه إلى تـنفيذ أمر صعب، وهنا ينقسم الناس إلى خائرٍ منسحب متهيب، ومقتحم، فهو يقول: إنه من الصنف الثاني، **وأن علاج الهَوْل أن تزدريه وتذلّله وتمسك بلجام المصاعب حتى تـنقاد، فإن طبيعتها كذلك، تـتمرد وتجمح، لتُرهب الذي يريدها، فإذا كان عارفاً بطبائع حركة الحياة: أقدم عليها بشجاعة، وتحدّاها، واخترق حاجز الرعب، فتنهار وتستسلم وتُعطيه القياد.**

وانتصارات القلوب هي مفتاح انتصارات الميادين.

وهو في الحقيقة لا يشير إلى الصعاب المادية، وإنما إلى صعاب أخرى في السلوك والعبادة وتصفية النفس وطباع عُليا يتميز بها عن عامة الناس، ولربما حام بعض الصوفية حول معانٍ ابتداعية في ذلك وتكلّفات ننكرها، ولكـن أصـل التخريج النفسي يبقى صالحاً للاستشهاد به على **أنها العزمات والهمم هي التي تستهين بالأهوال فتذللها، وأن الانسحابات ورجفات القلق هي التي تستعظم الأمور فتضخمها**، فالهَول والرُعب أمرٌ نِسبي تـتحكم به الانطباعات، ويشكل هذا التحليل شاهداً على سبق التحليل الإيماني لكثير من طرائق علم النفس المعاصر.

□ منهجية التصرف النفسي تُضاعف الإنتاج

□ وأساس ذلك قول ابن حِبان البُستي: (**لن تصفو القلوبُ من وجود الدَّرَن فيها حتى تكون الهِمم في الله هَمّاً واحداً.**)[١٢].

وهو قول مأثور عن آخرين أيضاً.

وطبيعة الهِمَم والهموم أن تكون متفرقة، لكل خصلة خير ما يليق لها من هَمٍّ يستولي في صورة تفكير بها وحولها، ومن هِمّةٍ في صورةِ نيّةٍ جازمة على اقترافها، فالتجزيء حاصل لا محالة، ولكن "**توحيد الهَمّ**" **يراد به إرجاع هذه الأجزاء الخيرية إلى أصل واحد، ومُنطلق جامع، وتعليل مركزي منه تتشعب وتتنوع**، وبذلك تنضبط المواصفات من جهة، وتضمن تماثل الطريقة في التلقي والتعامل والعلاج، **ومعنى ذلك حصول "منهجية" في الفهم سابقة على الخطو والتوغل والممارسة، تمنع الارتجال والفوضى**، بل يكون هناك ترتيبٌ وتتابع ومنظومةُ أعمالٍ تتكامل، **وذلك هو التخطيط بعينه، وهو معنى "الهمّ الواحد" في اللسان القديم عند جيل الأوائل** مثل ابن حبان، ففي "النفس" عزماتٌ صالحة ونوايا واعية، فلا ندعها رهينة لاستفزازات الظروف وهجمات الضرورة وردود فعل الدفاع، بل نضبطها برؤية قَبْلية سابقة على التصرف، فيها شمولٌ وإحاطة وتسبيبٌ مترابط، وغاية عبادية تتساند أركانها وتتعاضد، وعندئذ يكون تأثير هذا الانطلاق الواعي الصادر عن رؤية مُسبقة أعمق في تحريك الحياة من سيلٍ آخر من تأثيراتٍ صغيرة شتى لا يجمعها تأويل متناسق.

□ بَدْوٌ... مضاربهم في وديان السليكون

□ **لكن هذا النمط التخطيطي الذي يُراد له أن يَعم المجموعة: ينبغي أن يقابله تطوير شخصي، ليكون التكامل واستثمار المعطيات**، وهذه آفاق عريضة تفترض تربية الناس على الحرية إذا أردت لحرية سياسية أن تترسخ، وأن تعلم الناس

النظام ومعنى الحقوق حين تريد للحياة القانونية الدستورية أن تسود، وأن يتم تعويدهم على منهجية الأداء وتوفير المعلومات إذا عزمت على وضع خطة وتنفيذها، **وقضية التطوير تبدأ بالإيمان الواعي** الذي توجهه الموازين وتخرجه عن أن يكون تقليدياً، وتمر بالعلم وبناء الشخصية الأخلاقية، **وتتوغل نحو الرؤى الحضارية والإتقان الإداري والحساب التنموي.**

وعلم حركة الحياة عالمي في مداه، ويميل إلى مجاراة هذا التعميم في تصور التطوير، ولكن يجب أن يراعي أيضاً ضرورة التميز بشخصية خاصة تحافظ على العُرف، والتراث، والمعطيات البيئية والمحلية.

وتلك هي شخصية بعض الصحابة لما حكموا وأداروا دولة الإسلام الجديدة، وقول عمرو بن مَعْدِ يكرب في وصف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يكشف عن ذلك لما سأله عمر بن الخطاب عن فعل سعد لما تولى إمارة العراق بعد فتحه إياه، فقال عمرو: (أعرابيٌ في حِبْوَتِه، نَبَطيٌ في جِبْوَتِه).

والنَبط: هم بقايا سكان العراق والمدنيات القديمة التي كانت فيه قبل الفتح الإسلامي.

(أراد: أنه في جباية الخراج وعمارة الأرضين: كالنبط حذقاً بها ومهارة فيها، لأنهم كانوا سكان العراق وأربابها.)[١٣].

وهذا ملحظ مهم، فالداعية المسلم الساعي إلى أن يسيطر يلزمه أن يكون مدنياً عصرياً علمياً يتقن التنمية وعمارة الأرض، ماهراً فيهما، ويكون مثل سعد بن أبي وقاص، لكنه مدعو إلى أن يحافظ على نقاء شخصيته الفطرية الأولى، وبقاء مسحة الإيمان والبساطة والكرم وعفوية التعامل واسترسال السجيّة، ولا يتغرّب ويتأمرك ويتنطع، بل يكون بدوياً في أخلاقه وطباعه، طليق اليد، بريء الخاطر، نقي النفس، ساذج المذهب، منساباً مع طرائق العزة النجدية، والنداوة الحجازية، وأريَحية تغمر كرام بوادي السماوة والأنبار والشام.

□ سباق "البريد"... إلى الركن الشديد

□ لكن هذه الأوصاف لا تعني أن يلبث محرك الحياة مع قياسات المهندس التنموي فقط، بيده المسطرة والحاسبة فيلتزم نتائج الضرب على طول المدى، بل هو سياسي أيضاً، يتعلّم أفضلية الرفق والمصافحة والمسح على الرؤوس أيضاً وتقسيم الممارسة إلى أنواع وضروب ودرجات، وتلك هي الحكمة في أقرب معانيها. فسياسته تدور بين الحزم واللين، كما دارت إدارته بين الحبوة والجَبْوة.

● **ولا تكون الوسطية ظاهرة في كل فعل، بل تكون أحياناً نتيجة تعادلية لنوعين من الأفعال،** كالملاحظة التي لاحظها الشاعر حين مدح الرجل النبيل[١٤] وأنه:

لــه كفّــان: كــفٌ ضُــرٍّ

وكــفُّ فواضــلٍ خَــضلٌ نــداها

فمرة يضر ومرة ينفع، فتكون الحصيلة: سيرة متعادلة نسبية التوزيع لأجزاء الأفعال.

● لكنْ: ليس دائماً، فإنّ بعض الناس يتمادون عندما نحلم، ويفهمون ذلك من الضعف، **ولذلك تميل الحكمة إلى الحزم والإغلاظ للمسيء الجاهل المغرور الملحاح،** وذلك مبدأ الشاعر القائل[١٥]:

لـئن كنـتُ محتاجـاً إلى العلـم إنـني

إلى الجهـلِ في بعـض الأحـايين أحـوجُ

ولـي فَـرَسٌ للحلـم بـالحلْم مُلْجَـمٌ

ولـي فـرسٌ للجهـل بالجهـل مُـسْرَجُ

فمـن شـاء تقـويمي فـإني مقـوّمٌ

ومـن شـاءَ تعـويجي فـإني معَـوّجُ

● وطبيعة المسار التغييري أنها تستدعي بذلاً وتضحية، تبدأ العُصبة عملها بهمة، فإذا صار التوسط: احتاج المضي شهداء، وتبقى زُمرة هي التي تحضر النهاية عند الاستواء. وهذا واضح في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم: صار أصحابه جهرة، فسقط منهم حمزة ومصعب، ثم جعفر وابن رواحة، في أفواج، ووصلت البقية، فأرست الدعائم.

ومجموعة امحمد بن الطلب الشنقيطي[١٦] كانت كذلك وسَرَتْ عليها هذه الظاهرة:

وفتيان صِدقٍ قد دعوتُ فبادروا
لـمَحْمَدةٍ تغلو على كلِّ بَيّعِ
حلومُهم أحلامُ عادٍ ودينُهم
بَنَوهُ على الأُسِّ القويمِ المُمَنّعِ
بَنَوه على نهجِ النبي محمدٍ
فما مالَ حتى صُرّعوا كلَّ مصرعِ
وأبقى مِراس الحربِ منهم بقيةً
بحمد الإله لا تلينُ لمُقطعِ

فهذه سيرة مجموعة دعوية، أدّت الضريبة، وما تأخرت، لتبقى منهم بقية يصلحون الأرض، وهذه قصة متكررة، هي عنوان الإصلاح، ولتكرارها: فرضت نفسها كقاعدة في التخطيط وفهم حركة الحياة، ومفادها هو مَرجعٌ في تفسير التداول، مثلما هو تأويلٌ تأسيسي لكل انطلاق، **وكأن المجموعة رجال سباق البريد، كل مرحلة يقطعها رجل ويسلم الأمانة لمن بعده.**

❑ إمارة الفكر

❑ لكن إن كانت ظاهرة تولي الأجيال المتتابعة الأمانة وتسليمها صحيحة، وكأن العملية هي سباق البريد: فإن صحتها ودقتها ينبغي أن تستند إلى عامل **"وضوح الفكر"** وتحديده، إذ هو الضامن لأن يؤدي الجيل اللاحق نفس ما أراده الجيل السابق، ويظل محافظاً على السمت المميز للجماعية العاملة، أياً كانت، وتغيير مسار الحياة ينبغي أن يستند إلى رؤية تحكم الحركات المؤدية إلى بناء الواقع المبتغى.

ويرتبط هذا الوضوح الفكري بظاهرتين تنضجانه وتمنحانه تأثيراً أوفى:

● **بظاهرة "المذهبية" أولاً:** فتحريك الحياة وإن كان متاحاً لكل أحد، إلا أننا نعمل في أرض الإسلام، ونحن من المؤمنين به، وتحريكنا للحياة ينبغي أن يلتزم قواعد الشرع، وقواعد الشرع تحتاج إلى "اجتهاد متجدد" وقياس واستنباط، ويمثل ذلك نشأت المذهبية القديمة ونتجت عنها خيارات وحلول، **ويسوغ للمجموعة الإسلامية التي تحرك الحياة اليوم أن تصوغ مذهبها الفقهي الاجتهادي الخاص من خلال التزام أصول الاجتهاد، وهذا ما يؤدي إلى تحديد "فكر رسمي" لكتلة الإصلاح**، أو لكل كتلة إصلاحية في الساحة إذا تباينت الاجتهادات، وذلك إنما هو جزء من الظاهرة القيادية في حركة الحياة.

إن كل جماعة إسلامية تحتاج إلى "كتاب جامع" يكون أساس فكرها، ويحدد الهوية، ويفصل عند الاختلاف، ويوحد بين الأجيال، وتتقدم به الجماعة إلى الناس للتعريف بطرائقها وأهدافها واختياراتها.

وفي المجال الإسلامي المعاصر: نرى الأثر الكبير لرسائل الإمام البنا في التعريف بالفكر الرسمي لجماعة الإخوان، بحيث صارت المرجع والمقياس، وساهمت في توحيد الأجزاء العالمية لحركة الإخوان على كلمة سواء.

ولرسائل النور التي وضعها بديع الزمان آثار مماثلة.

وكتب النبهاني أكسبت حزب التحرير فكراً رسمياً تام التحديد، وصبغت الهوية الفقهية والنفسية للحزب وفقها.

وأمر الجماعة الإسلامية في القارة الهندية مثيل، فإن سلسلة كتب المودودي هي الفكر الرسمي للجماعة.

وقد يحصل عند جماعة معينة اعتداد فيه مبالغة، بحيث لا ينمو فكر موسع لديها يعتمد على الفكر الرسمي الأساسي، كما عند جماعة النور وجماعة المودودي، حتى ليظن المراقب لأول وهلة أن الجماعة عقمت أن تنجب مفكرين يطورون أصل فكرها.

والذي يريد تحريك الحياة عليه أن يدرك هذه الخاصية التي يمنحها الفكر الرسمي، فيتخذ له مدونة منهجية فيها صياغة أهدافه واجتهاداته وأنماط فهمه وخططه في التأثير، وتكون الأساس المركزي الفكري، لكن يتيح في نفس الوقت المجال لنمو تفسيرات وشروح ودراسات نقدية تتوازى مع الفكر المركزي وتخدمه وتتم نقصه ربما أو تجدد عرضه وصياغته.

بل كأن الجزء من الحركة الواحدة في قُطرٍ عليه أن يجعل له فكراً مركزياً يذكر فيه فَهمه النسبي لقضية العلاقة بين فكر الجماعة المركزي وخصوصيات قضايا قُطره، وذلك من شروط نجاح تحريك الحياة وتنزيل المعادلة الحيوية العامة على واقع خاص، وكان محفوظ النحناح سباقاً إلى مثل هذا بالنسبة للجزائر.

- **ويرتبط الوضوح الفكري ثانياً بظاهرة "الصياغة الأيديولوجية".**

والأيديولوجية Ideology هي (مصطلح يُقصد به كل مجموعة نظامية من المفاهيم في موضوع الحياة أو الثقافة البشرية. كما يقصد به طريقة التفكير، أو محتوى التفكير، المميِّز لفرد أو جماعة أو ثقافة. ومجموع النظريات والأهداف المتكاملة التي تشكّل قوام برنامج سياسي اجتماعي.

والواقع أن من دأب الناس أن ينظموا نشاطاتهم السياسية والدينية والأخلاقية والثقافية والاقتصادية بطرائق معينة، وأن يطيلوا التفكير في هذه النشاطات المختلفة وفي المؤسسات التي تجسدها، حتى إذا تمّ لهم ذلك انتقلوا آخر الأمر إلى تكوين فكرات معينة عن طبيعة هذه النشاطات والمؤسسات ومزاياها.

ليس هذا فحسب: بل إنهم كثيراً ما يعمدون إلى صياغة هذه الفكرات في نظام عقائدي متكامل، وهذا النظام العقائدي المتكامل هو ما جرى العرف على تسميته بـ"الأيديولوجية".)[١٧].

وهذا التعريف يجعلها أقرب إلى أن تكون قضية "منهجية" ليست موضوعية، أي هي طريقة منهجية في صياغة وعرض الموضوع، لذلك يجب أن لا يغفل منها المسلم، بل يحاول أن يمنح فكره الإسلامي فرصة أحسن من خلال صياغة البرامج ونظام العقائد في صياغة وافية متكاملة، وسبب حاجته لذلك أن "الفكر الإسلامي" هو أمر أوسع جداً من الفقه وكُتلة الأحكام الشرعية، إذ يتولى الفكر جوانب تجديد الاجتهاد، والمقارنة بتاريخ التطبيق خلال توالي العصور الإسلامية، والمقارنة بالأديان الأخرى والفلسفات، والمقارنة بالواقع الحالي المعاش وما فيه من إحصاء وأرقام وشواهد للحكمة الشرعية، وتضاف لذلك قضايا العلم وشواهده وحديث الإعجاز، والفنون التخطيطية والإدارية والإبداعية، كما أن تطبيق الشرع مختلط بمعرفة اللغة العربية وآدابها، وتجارب ساسة الإسلام وقضاته وسيرة نبلاء المسلمين على مرّ القرون، وبقضايا تمثل مصالح عُليا للأمة، كمثل جهاد اليوم، ومواجهة صور الاستعمار المتجددة، واستثمار ثروات النفط والمعادن والمياه، وعموم قضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ومفهوم الأمن الاستراتيجي الحيوي العام، فهذه كلها قضايا ينبغي أن نمزجها بالدراسة العقائدية والشرعية لتكوين الأيديولجية الإسلامية التي تعرض كيفية حركة الدين الإسلامي في مجتمع معقد غاية في التعقيد وبين أعداء لهم شراسة وخداع، و**"الأيديولوجية الإسلامية" بهذا المفهوم المنهجي والأفق الواسع إنما هي جزء مهم من استثمار "الظاهرة القيادية" في التحرك الحيوي.**

● **ولأنها بمثل هذه الأهمية فإن مفهوم القيادة السياسية في الجماعات الإسلامية يجب أن يتغير، وأن نوقن بوجوب وجود "قيادة فكرية" هي العليا،** والأصل، ولها القرار الاستراتيجي، والصلاحيات الشاملة، **وما القيادات السياسية إلا قيادات تعبوية،** وللتنفيذ والعناية بالفروع والتفاصيل والعمل الميداني الموسمي.

وفِكْرٌ هذه آفاقه الواسعة: يتحرك بين الاجتهاد الفقهي، وفي رحاب المعارف، وينتبه إلى التنمويات والأمن الاستراتيجي للأمة الإسلامية كلها: حريٌ أن لا تعطله قُدرات فرد واحد ولو كان بدرجة الشافعي أو أحمد بن حنبل، بل "القيادة الفكرية" قيادة جماعية عدد أفرادها بين العشرة إلى العشرين في كل قُطر، لهم علم شرعي أصولي، وفهم قرآني وسُنّي، وإطلالة معرفية واسعة على اللغة والأدب والتاريخ والفلسفة، واستيعاب لمبادئ السياسة والتخطيط والإدارة والاقتصاد، وإحاطة بخبر المال وثروات الأمة، ثم لا يقنعون بما عندهم، **بل يكون الواحد منهم كأنه سكرتير يجمع الآراء والرؤى والنصائح من:**

- □ **طبقة من فقهاء الشرع** والمثقفين الإسلاميين الذين لا ينتمون إلى الصف الجماعي ولبثوا منفردين.
- □ **وطبقة من الساسة المخلصين** حتى ولو كانوا من العلمانيين، ومن وزراء سابقين.
- □ **وطبقة من قادة الجيش** والشرطة والمخابرات، أو من ا لمتقاعدين منهم، وإن كانوا لا يصلون.
- □ **وطبقة من أساتذة الجامعات** المتمرسين، وخبراء التنمية.
- □ **وطبقة من الإعلاميين**، من رجال الصحافة والفضائيات ومواقع الإنترنت.
- □ **وشاعر، وتاجر ومدير بنك، وشيخ عشيرة، وعميد عائلة، وبطل.**
- □ **وطبقة من فضليات النساء** من كل هذه الأصناف.
- □ **بل من أهل الخبرة من شعوب الأرض** في الغرب والشرق ولو كانوا نصارى أو من البوذيين إذا كان لهم نظر سياسي أو تنموي أو تأمل فلسفي، وكانوا من أنصار الحرية وحقوق الشعوب.

● فهؤلاء كلهم نطلب منهم النصيحة، والرأي، والتحليل.

وماذا يضيرنا ذلك ما دمنا لا نمنحهم سلطة ولا نشركهم في قرار.

إنما هو الحوار المتكافئ، وتبادل المعلومات، وذلك جزء من فحوى الشورى.

وانظر إلى الفضائيات: كم تشاهد فيها من عالم ومحللٍ واعٍ وذي قول صريح.

لكن إن لم تدوّن فكرك: فكيف تجعلهم يوازونك؟

❑ لقاء الفن والإيمان معاً في مُحصّلة الحركة الحيوية

❑ ومذهب إحياء فقه الدعوة يسير متوازياً مع علم استراتيجيات الحركة الحيوية إلى أبعد من ذلك نحو إقرار «الفن» كمحرك من محركات الحياة، وكجزء من المنظومة المعرفية وكتلة الثقافة والتكوين الفكري، ولا بد أن تكون «التحريكات الفنية الجمالية» ضمن اهتمامات القيادة الفكرية الجماعية للعمل الإسلامي.

وذلك هو نوع من مماشاة المعنى العُرفي للثقافة، فإن «الثقافة»: (هي المحتوى الفكري والفني للحضارة، وإنما يُقصد بالثقافة عادة: مجموعة معقدة من المعارف والمعتقدات والأخلاق والقانون والدين والتقاليد والأساطير والفنون، تؤلف كلاً متميزاً يطبع حياة جماعة عرقية أو دينية أو اجتماعية.

ومن معاني الثقافة أيضاً: الإلمام بمبادئ العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية والمعرفة العامة بالفنون الجميلة وتذوقها، مع رهافة في الحس وانفتاح في التفكير.

وأياً ما كان: فالثقافة في نهاية المطاف: نظرة إلى الحياة والإنسان، وموقف نظري أو عملي من الحياة والإنسان.)[١٨].

ولو أننا استبعدنا من سياق التعريف كلمة «الأساطير» ذات الاستفزاز للمؤمن: فإن بقية المحتوى يكون مقبولاً، وفيه تقرير الفن والجمال كمضمونين من مضامين الثقافة، والتعريف العام، وبعض الثقافات فيها أساطير، لكن الثقافة المبنية على عقيدة التوحيد بريئة منها، فما الضير من الإشارة إلى عوار بعض الثقافات.

ومثلما أن للأرض حركة مستقرة من خلال دورانها على نفسها، فإن دواخل العمل الفني قد توحي بحركة تناظرية أو دائرية أو في تعاكس، مع أنها مستقرة داخل اللوحة، وهذا يحدث واضحاً في الزخارف حين تتكرر الوحدة[١٩]، ليكون المشاهد متحركاً يحس بالحركة مع تمادي التكرار، فإذا توزعت هذه الزخارف

واللوحات ذات الحركة عبر العمل المعماري الواحد وأجيد استخدامها: تحصل حركة في نفس الناظر، **وحين يكون في المدينة حشد من الأعمال المعمارية: يكون الناظر المتنقل دائم الشعور بأصداء حركية في نفسه ودواخله، وهكذا يتولد "تيار حركي" نفسي عند الناظر**، فإذا تكررت موارد التحريك من خلال أعمال فنية في كتاب، ومجلات، وأفلام وبرامج تلفزيونية: يتحول التيار إلى زخم شديد ومؤثر، وتتولد حركة كبيرة داخل سياق النشاط اليومي للفرد، فإذا ارتقى الذوق الفني والإحساس الجمالي لدى جمهرة من أهل المدينة: تعاظم حجم ناتج الحركة وانفعال التحريك، **وهذا التحليل يكشف جانباً من ولادة "حركة الحياة"** وتناميها، فإذا حصل مدد لهذا التحريك من وسائل الأدب والمنطق والمعارف الأخرى: تتضاعف زخوم التحريك ولا بد، وتحاول أن تجد لها مسرباً وتصريفاً، فيتغير الواقع، وهذا هو الذي يتضح لأكثر "القياديين" دون المنفعلين الذين هم استعداد المتابعة والتقليد والولاء والطاعة، ومن هنا كان "السباق الدائم" إلى استخدام الوسائل الجمالية والأدبية والعلمية، **وهذا هو الذي يفرض على دعاة الإسلام أن يفهموا جيداً جذور معادلات حركة الحياة، ليبرعوا في تنفيذها، ليملكوا المستقبل، ومن هذه المعادلات: النسبة الذهبية الفنية**، وهي صيغة فيها بيان تناسب أطوال أعضاء الجسم الإنساني، وعلاقاته بأبعاد البيئة التي يتحرك فيها، **ولكن المدارس الفنية التجريدية المعاصرة تحررت من هذه التحديدات، ومالت إلى أبعاد رمزية.**

❑ النسبة الذهبية الفنية المعاصرة تحقق الحركة المستفزة

• ونُصُب "السجين السياسي المجهول" للفنان الإنكليزي "ريك باتلر" يشرح كيفية التعامل مع الفراغ والمفهوم الجديد النسبي.

(**هذا النُصب** مرفوع على صخرة مرتفعة بمقدار عالٍ عن سطح الأرض، ومنحوت من مواد معدنية وقُضُب حديدية ملحومة) و(مضمون هذا النُصب **يمثل السجين السياسي** وحرية العمل وانطلاقاته إلى الأفضل، فالفضاء هنا أمر محتوم

يمثل الانطلاق ضمن الفراغ وسموّ أفكار السياسيين الذين يكافحون من أجل حرية الإنسان سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، والسلالم هي رمز لصعود الإنسان الحضاري عن طريق الانطلاق إلى الفضاء الخارجي الذي يمثل فضاء الحرية، حرية التعبير والتفكير والعيش والتضحية. والأشخاص الثلاثة رمز للإنسان سياسياً وحريته على الأرض ومعاناته من أجل إسناد الأجيال المعاصرة والقادمة الصاعدة، وهم يمثلون وحدة الرأي والتكتل الاجتماعي والسياسي والإنساني.

إن إعطاء الفضاء والارتفاع الشامخ والقاعدة القائمة على الصخر: دلالة متينة على رسوخ الفكرة نفسياً بقاعدة متينة رأسية، والفروع الصاعدة إلى السماء رمز لبناء حضارة الإنسان الصاعدة في فراغ الزمن)[٢٠].

وعندي، وبعد التأمل، وباستحضار جوانب الوعي الفني التي تراكمت طيلة حياتي بين جوانحي: **أن هذا النصب هو فعلاً قمة من قمم الإبداع الفني وفق المفهوم المعاصر النسبي للأبعاد ومضامينها المعنوية، وهو عمل كامل يساوي مدونة شاملة في الفلسفة، وديوان شعر، وموسوعة تاريخ**، وإيماء الاستمرار في اختراق الفضاء إلى الأعالي هو أبرع ما فيه، وأنا أغبط هذا الفنان: لماذا لم يسبقه إلى تكوين هذا النصب فنان داعية مسلم حُر يتغنى بالاستعلاء!! ولمثل هذا فليعمل الدعاة!!

● **وأنا أزعم أن في نُصب الفنان "باتلر" للسجين السياسي مجموعة معانٍ إسلامية دعوية محشورة بنجاح.**

□ **فالصخرة رمز لعمق المرتكز**، والأصالة، والثبات، ورسوخ الجذور، بحيث أن الانطلاق نحو الأعلى يكون مصوناً، ويكون التسامي مَبنياً على قاعدة موثوقة تتيح للطموح أن يجتث الوسوسة.

□ **وصِغر الأجسام** الآدمية الثلاثة بالنسبة إلى ضخامة الكرسي: إنما هي **إشارة بارعة إلى أن الحرُّ مهما بلغ من بذل وإصرار وتضحية فإنه لا يتعدى أن يكون فرداً من مجتمع كبير ومن أجيال تتوالى، وأن الذات الجماعية هي مظنة التأثير**، ومعدن البناء، وأن الإنجاز هو الإنجاز التراكمي الحضاري العظيم، ولكن لا بد من حلقة في السلسلة.



☐ **وأن الدرج التحتي كناية عن العمل الحركي** الدعوي الذي فيه تربية وتنظيم ونظر فكري وتكوين أخلاقي.

☐ **حتى إذا نجح: كان الكرسي الكبير ترجمة وافية لمعنى السلطة** والسيطرة الواسعة وتذليل الطاقات لخدمة الحياة ومتطلباتها، بل لإنشاء الحياة على نمط يتفق والفكر الذي لمع في عقول الأحرار.

☐ **ومن هذا المنطلق المستند إلى "قوة الحرية" و"حرية الأمل" يكون صعود الدرَج الثاني الذي هو سُلّم الحضارة والمعرفة**، وصياغة أدب ينمو في جانب الحكم، وفلسفة تكتمل صياغتها عند المتكأ: ليتاح للفن أن يستوفي المهمة ضارباً صُعُداً في الفراغ الذي لا نهاية له، على سَنَن **الاستعلاء، في شموخ وإباء وعزة، ليكون دليلاً لوُرّاث الحرية يقودهم نحو سمو الطموح** واستمرار الوتيرة واقتباس طرف من معنى الخلود بديم محاولات الإيمان التالد.

وببعض إلغاء تفاصيل التكوين الجسدي للأشخاص الثلاثة، وقطع ضلع من شبه صليب في الوسط: يتحول النصب إلى مثال إسلامي خالص.

● **فهناك إذاً نبضةٌ من نبضات حركة الحياة اسمها "نبضة السجين السياسي"**، ليست تدفع الحياة حركياً فحسب، وإنما تؤطر لها إطاراً وتمنحها إياه، لتجول في داخله على بيّنة من أمرها، وحق خوّله لها منطق الصعود الحضاري، **وإذا تطور الأمر إلى "إزهاق روح السياسي"** باغتيالٍ أو شنق **فإنّ النبضة تكون انفجاراً**، وتزداد بلاغة الصدى، ويحال الدم إلى أن يكون فلسفة تامة في صعود الحر وارتكاس المجرم، وصمود البذل وانهيار اللؤم، فتتبدل المعادلات بأخرى، فيها نفضة وهزّة وأذان ببدءٍ جديد يصل إلى آفاق بعيدة بسرعة يضاعفها تعجيل، وبسكون يحترم أسماء الشهداء ويُظهر لها التبجيل، حتى تكون سِيَرهم منهجاً يشرح أصل فكر الحرية، ويبقى يمده بزخم العاطفة، **فيتقد العقل بحرارة الروح، ويتثبت فقه الحركة بمداد الحقيقة، وينير المجال بشعاع الجمال.**

● **وبمثل هذه الأحاسيس يكون الانتباه إلى قول الشاعر الحُر الجزائري محمد برّاح: "وسُجنتُ:فاجتاز الضياءُ حصاري!!"**(٢١).

فالسجين الفكري لا ينفصل عن جمهوره، لأنه لا يعطي مالاً ولا يمنح مادة، إنما هو يُنير بفكره درب التوغل ويكشفه للناس، لذلك **تخترق رؤاه الجدران فتمضي سارية تهدي إلى الطريق، ويكون قائداً وهو الحبيس.**

فمعنى الانتشار الأفقي العريض هنا، في شعر الأحرار، لضياء الفكر: يكمل معنى السمو والاستعلاء في فن النحاتين، وذلك يحوي المغزى المهم الذي يبرهن على أن الفكر أو الجمال العقلي يكون له جزء يتناول الفن ومعايير الجمال المنظور، وهو مكافئ لجزء الجمال اللفظي اللغوي، وتلك لمحة من لمحات طبائع تأثير الحركات الحيوية يجدر بنا أن نستوعبها ونفهم طرائق ورودها من أجل استثمارها في صناعة تيار تأثير يوافق الإيمان ومُراد الله تعالى من إنزال القرآن هادياً للبشر ونذيراً، ومنطلق تخطيط وتوجيه للنبضات في ساحات الحياة تحقق تمكين كتلة الإصلاح عبر الظاهرة القيادية التي جزؤها الفكر، الذي جزؤه الفن.

□ إذا استطرد الوَرَع: عُصمت الأمة من الهَلَع

□ **مع أن المتأمل في حركة الحياة يدرك أن كل هذه العطايا الفنية الجمالية إنما هي نافلة وتكميل وتحسين يُضاف إلى الأهلية القيادية، وأما الأصل في شروط نجاح الظاهرة القيادية في الميزان الإيماني فإنما هو** "الورع" وما يؤدي إليه من تقوى وحساسية قلبية ترفض المنكر وتخاف التورط في شيء من ظلم أو تقصير، على مذهب عمر الفاروق رضي الله عنه حين قال: (إني لأعلم متى تَهلِكُ العَرَب: إذا ساسها مَن لم يُدرك الجاهلية، فيأخذ بأخلاقها، ولم يُدرِكْه الإسلامُ، فيَقِذْه الورع.) (قوله: فيقذه: أي يُسكِّنُه، ويُثْخِنُه، ويبلغ منه مبلغاً يمنعه من انتهاك ما لا يحل ولا يَجمُل.)[٢٢].

وفي هذا القول **ثلاثة موازين متكاملة:**

● **أن هلاك الأمم يأتي من انحراف الساسة**، لأنهم يحملون الناس على فعل الأشياء، أو يزينون للناس السوء، وهذه الظاهرة لا تنفي أن يكون بعض الهلاك لأسباب أخرى. ومن هنا تكون السياسة من أكبر محركات الحياة، ولذلك يطلبها الداعية.

• **وأن من تُروى له حكايات الجاهلية لا يكاد يتصور ما فيها من سوء إذا عاش في زمن الخير ولم يرزح تحت وطأة شرورها**، ومعنى ذلك أن المعاناة لها الأثر التربوي الأكبر، وأن الفتن فيها تعليم للناس مثلما فيها ضرر، وهذه ظاهرة من ظواهر الحياة نعلم من خلالها سبب تباين نتائج المحرك الواحد في بيئتين أو أكثر، وأن البيئة والسوابق والظروف التاريخية تحدد مدى تأثير المحركات ولا تجعلها بمواصفات قياسية، وأن الشباب غير الكهول والشيوخ في إدراك الجاهليات.

ولمتأول أن يزعم أن سياق القول العمري يشير إلى أن جاهلية العرب برغم انحراف عقيدتها إلى الشرك فإن أخلاق الكرم والشجاعة والوفاء والنجدة كانت عامرة، وأن طباع الفروسية هي الغالبة، فيكون معنى قول عمر: أن مَن لم يحكمه الورع فعلى الأقل تحكمه هذه الأخلاق البدوية، ولكن الأشهر في تفسير مثل هذا القول هو ما ذكرناه من احتمال ارتكاب المسلم لأفعال الجاهلية إذا لم يعش تلك الفترة وجهل ما فيها.

• **والميزان الثالث: أن الورع إذا امتد زمنه: اشتد وأنتج، وأن له صفة تراكمية،** ومرور الزمن عامل ترسيخ لمفاد الورع، بتكرره وتوارد خواطره على نفس المؤمن مراراً من خلال الإعادة وتجدد البواعث، ولذلك لا يكون الإصلاح خطة موسم واحد، لا من ناحيةٍ تخطيطية فقط، وإعداد الآلة والمال ونضوج التخصص، بل من ناحية ترويض النفس الجموحة التي يلزمها مرور مواسم كثيرة لتلين، والفورة الطارئة تنفعها، كبداية جادة نشطة، لكن لا تكون فيها الكفاية. وهذه الظاهرة التربوية أصل في فهم كيفية عمل محركات الحياة، وهذا يُفسر القلق الذي انتاب جبهة الإنقاذ بعد الصدمة، وهو غير التفسير التخطيطي الذي ينظر للقضية من زاوية أخرى.

وهكذا: فإن العلم بسوء الجاهلية إذا تكامل مع العلم بمكارم الشريعة فإنه يُنتج ثلاثة موازين:

أن هلاك الأمم إنما يكون بانحراف الساسة.

وأن المعاناة أساس، ومن عَرف السوء: عافَه.

وأن الورع إذا امتد زمنه: أنتج.

وتتشكل من ذلك **ثلاث معادلات** من معادلات علم الحركة الحيوية.

❑ فرسان يمنحون لذوي الآلام الآمال

❑ ومعظم المعاني التي وردت آنفاً لوصف الظاهرة القيادية إنما تتعلق بجانب القيادي نفسه وصفاته وطرائق تكوين مهاراته وتشكيل فكره، ولكن الظاهرة القيادية لا تعمل عملها من جانب واحد، **وإنما يلزم لكي تكتمل دائرة التشغيل أن يعمل الطرف المقابل عمله، ويتمثل ذلك بوجود أتباع يقدمون "الولاء".**

● **والمنطلق في ذلك: نشوء نبضات تحريكية، أساسها وباعثها: تفتيش الناس عن مانح أمل** لهم عندما تستبد الحيرة ويستولي الإحباط.

وهي حالة إرهاصات يصفها طريف العنبري[٢٣] فيقول:

أوَ كلما وردَتْ عُكاظَ قبيلةٌ

بعثوا إليَّ عَريفَهم يَتوسَّمُ؟

فلحكمته أو لشجاعته أو لجماله: صار أعجوبة في الناس، كل فريق يريد معرفة كُنهَه وذخيرته، لعلهم به يقتدون، أو له يطيعون ويجعلونه الرئيس!!

وما هو بمصيب في تبرّمه هذا، وخير له أن يدع الناسَ تتبعه.

والداعية صاحب الميزان والعلم والعقل ينبغي أن يعرف أن الناس ستطلبه، وهي التي ستركض وراءه، بعد أن كثر الغُثاء وانحرف أكثر المشاهير.

والأرجح أن تعلقهم بطريف هذا إنما كان لشجاعته، لأنه يفخر ويقول في بيت آخر:

تَعرَّفوني أنني أنا ذاكُمُ

شاكٍ سلاحي، في الفوارس، مُعْلَمُ

فهو فارس إذاً.

وهذا ما يجعل "الفروسية" دوماً من أهم محركات الحياة، **لا في نتائجها المعركية فقط، بل في قابليتها لأن تكون عامل تزكية للقيادات والزعامات**، وسببَ ترجيح **للشجعان على أهل الهدوء والوداعة**، والشاهد يكمن في "توسّم الناس له" وبحثهم عمن يعطونه صفقة الولاء.

● **والولاء مورد خير إذا كان القائد مسلماً**، ويريد إنفاذ مصالح الإسلام، ولكنه يمكن أن يتحول عن مقصده وطريقته المثلى إذا لم تشذبه التربية وتجعله واعياً، لأنه قد ينحرف ويكون مجرد ولاء شخصي.

إن سيئة الولاء المطلق: أن التابع الموالي يتعلق بالقائد ويثق به ويتواكل عليه، فإذا مات انقلب الموالون على أعقابهم، وإذا قُتل في الحرب انهزموا ولم يواصلوا الثبات، ومن ثم **يكون الولاء الذي لا تصحبه تربية إيمانية وفكرية وبالاً في ساعات الشدّة إذا لم يوات القَدَر**، وهذا هو الذي حصل للجيش الأسباني لما قَتل طارق بن زياد الملك لُذريق أول الفتح الإسلامي بعد العبور، فإنّ الجيش انهار بقتل لذريق، وهو ما فعله ألب أرسلان أيضاً في معركة "مَلاذكَرْد" حين ركّز هجومه على ملك الروم وأسره ونادى أن قد قُتل الملك، فانهزم جيش الروم كله وكان يقدر بخمسين ضعف المسلمين، وكل ذلك بسبب الولاء الشخصي، وقد حصلت للعرب نكسة نفسية إحباطية شديدة لما انهزم عبد الناصر في معركته مع إسرائيل، ثمّ لما مات، لأن دعايته ربّت العرب على الولاء لشخصه وأبرزته كقائد ملهم واستعملت الدعاية أنواع المبالغة والتضخيم، فكانت ردّة الفعل لما حصل الفشل عظيمة مُدمرة، وكل ذلك طرف من خبر حركة الحياة حين تمرّ من قناة استخدام نظرية الولاء.

☐ التفسير الذكي لظاهرة الولاء الواعي

☐ **وليس من شروط القيادي صانع الولاء المؤثر في حركة الحياة أن يكون "مُنتجاً" لأدوات التأثير**، أو "مالكاً" لها، أو "مُعيداً لصياغتها" بشكل غير الشكل الذي وجدت عليه، **وإنما حَسْبُه أن يكون "مِفصلاً" و"مَمراً" تمرّ به المؤثرات.** فيقوم بوظيفة "توجيهها" ومتابعة إدامتها لتكون بكثافة مؤثرة.

واصل هذه الظاهرة: حركة الإلكترون حول نواة الذرة، فإنه بحركته يلزمه من الناحية النظرية أن يبعث أشعة، ومعنى ذلك أنه سيستهلك مخزونه من الطاقة، وتنفذ، وتتبدل البِنية الذرية، لكن ذلك لا يكون، لأن الذرة لا تعمل كوحدة مستقلة، بل هي مرتبطة ببقية الذرات، **وهناك عملية جماعية، أساسها: استقبال إلكترونات من ذرات أخرى، وإعادة إرسالها، في شكل فوتونات** ضوئية وإشعاعية أخرى، فتكون حالة التعادل الدائمة، ويكون المدار الخارجي لكل ذرة "مفصلاً" لهذه العملية من الاستيراد والتصدير، والأخذ والعطاء، ويكون الدأب واتصال الحركة، وما ثَمَّ غير "سوق تبادل" و"بورصة" في حقيقة الأمر، والمآل واحد.

وفي العمل الجماعي للسيطرة على الحياة: يمكن افتعال هذه الظاهرة في توظيف "الطاقة الشعبية الرخيصة" لصالح الخطة، فهناك نواة قيادية وخبروية وتخصصية، متماسكة، ويلزمها أشد الشروط وأقصى الاحتياط، لتظل متماسكة، متجانسة، ولكن في المدارات نلجأ إلى أسهل الشروط، ونتعامل مع ناقص، ومنحوت، ومنهوك، وطامع، وعدو بالأمس استسلم اليوم، لنبث بهم "موجات" التأثير، ونكون ممراً لهم ومفصلاً سالكاً، فتكون عملية "الولاء" حاصلة، لكن خارجياً، نؤثر بواسطتها في الحياة، في صورة ضغط وترجيح، من دون أن تنفلق نواتنا.

❑ أقدار ربانية يتجدد ظهورها في صور الولاء

ويرى ابن عبد ربّه صاحب العِقد الفريد: أن عزوف الناس عن المعاني العالية ورضاهم بالسُفلية والدون: إنما هي خِلقة وطبيعة وجبِلّة، فيقول: (قد "جُبِل" أكثر الناس على سوء الاختيار وقِلّة التحصيل والنَظَر، مع لؤم الغرائز، وضعف الهِمَم، فقلّ مَن يختار من الصنائع أرفعها، ويطلب من العلوم أنفعها، ولذلك كان أثقل الأشياء عليهم وأبغضها إليهم: مؤنة التحفّظ، وأخفّها عندهم وأسهلها عليهم: إسقاط المروءة. وقيل لبعضهم: ما أحلى الأشياء كلها؟ قال: الارتكاس.)(٢٤).

والتجربة تؤيد ملاحظته.

ومعنى ذلك أن الحركات العالمية الغالية الثمينة المؤثرة النافذة المغيِّرة إنما هي الأقل كمية وعدداً، وأنها نفيسة نادرة، وأهلها قِلَّة، إذ حركات تضييع الحق كثيرة، وهذه الظاهرة الحيوية هي التي أنتجت ظاهرة "القيادة" و"الزعامة" و"التفوق".

□□ أما بعد:

فإن الظاهرة القيادية قد اكتملت في محيط الواقع الإسلامي المعاصر، ورسخت عناصرها، وإنما هذا شرح فقهها، وبيان جذرها، ومحاولة تأصيلها، وتحليل طريقة نفوذها، وتحريك الحياة سائر، والبناء عامر، ولكن البيئة مزدحمة جداً، فحصل تأخير في موعد الوصول.

إن الدعاة يعملون في مجتمع معقد، وفيه منافسة، وأعمالهم صحيحة مؤيدة بموازين التخطيط، ولكنّ تكتّم المنافس وكثافة ظلام التعقيد تمنع الدعاة من رؤية نتاج نشاطهم، والأيام تمر وهم يؤثرون ويربون ويقذفون في قلوب الأخيار آمالاً، وفي قلوب الأشرار كبتاً، ولكنهم لا يدرون حجم البَرَكة التي وُفقوا لها، فتدهمهم وسوسة تثبيطية توهمهم أن جهدهم يذهب سُدى، إذ غزوهم للنفوس هو على أشده، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب، وينزعج دعاة نحتوا بالإبداع كلامهم فحجب ليل الإعلام المعادي بلاغته، وهو في نفوس القوم كمثل شعر حسان أشد من نضح النبل، وعما قريب تستسلم له القلوب والعقول، وتلك موعظة: أن يصبر المربي والمدرب والمفكر والفقيه، لأن التحول آت بإذن الله تعالى. ✪

---

(١) (٢) تفسير ابن عطية ١٤/ ٣٦، ١٣/ ٥٦٦

(٣) الرسالة القشيرية/ ٨٦

(٤) لسان العرب ٢/ ٨١٦

(٥) الشهب اللامعة في السياسة النافعة للمالقي/ ٤٢٢

(٦) موسوعة المورد ٣/ ٢٨

(٧) (٨) لسان العرب ١/ ٨٣، ٣/ ٣٢٣

(٩) (١٠) روضة العقلاء لابن حبان/ ١٤٥/ ١٦٢

(١١) الرسالة القُشيرية/ ٨٣

(١٢) روضة العقلاء/ ٣٢

(١٣) (١٤) لسان العرب ٣/ ٥٦٩/ ٢٧٦

(١٥) روضة العقلاء/ ١٢٠

(١٦) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط/ ١٧٤

(١٧) (١٨) موسوعة المورد ٥/ ١٧١، ٣/ ١٢٩

(١٩) (٢٠) علم عناصر الفن لفرج عبّو ١/ ٢٥٧/ ٣١٧

(٢١) ديوان نسائم الفجر/ ٣٠

(٢٢) (٢٣) لسان العرب ٣/ ٩٦٣، ٢/ ٧٤٥

(٢٤) العقد الفريد ٦/ ٧٦